

القدس شعبياً .. التاريخ والرمز

أحمد مرسسي

استاذ - قسم اللغة العربية - جامعة القاهرة

الملخص

تناول هذه الورقة القدس تاريخاً ورمزاً كما تبدو في المأثورات الشعبية العربية، لا باعتبارها مجرد مدينة أو مكان، ذلك أنها تتجاوز هذا المعنى لتصبح رمزاً يجمع عليه كل أصحاب الديانات السماوية الثلاث، من ناحية، والشعوب التي تعيش في هذه المنطقة من العالم من ناحية أخرى .

وقد ارتبطت القدس (أورشليم) بمصر بعلاقة خاصة طوال عصور التاريخ، وتشير الوثائق إلى أنها كانت تشكل حدود أمن بالنسبة لمصر منذ عهد تحتمس الثالث (1490 - 1346 ق م) (الأسرة الثامنة عشرة)، وأن العلاقة قد أخذت أشكالاً مختلفة - بعد ذلك - بتأثير الأديان السماوية التي عرفتها هذه المنطقة التي يطلق عليها الآن الشرق الأوسط، فلم يخل كتاب مقدس من ذكرها إشارة أو صراحة، ويكاد تاريخ القدس (أورشليم) يحكي - في جانب كبير منه - تاريخ هذه المنطقة بما حفل به من صراع منذ أقدم العصور.

وتتملى كتب التراث بمرويات كثيرة عن القدس بيت القدس (أورشليم) باعتبارها جزءاً من أرض الشام أحياناً وباعتبارها هي وما حولها تعني الشام. وهناك كثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول (ﷺ)، يرد بها ذكر اسم المدينة، كما أن كتب المفسرين أيضاً قد أشارت إليها في أثناء تفسير بعض آيات الذكر الحكيم باعتبارها مدينة مقدسة مباركة. وهي المكان الذي عرج منه الرسول (ﷺ) إلى السماء، وهناك اعتقاد لدى الفلسطينيين أن «الصخرة المشرفة» صعدت تزغرد في إثر الرسول ولم تتوقف إلا عندما أشار إليها بالتوقف، وأن هذا هو سبب تعلقها.

ويقدر المصريون، مسلمين ومسيحيين، المدينة المقدسة تقديراً خاصاً، وأفردت مأثوراتهم الشعبية لرحلة الإسراء والمعراج مكاناً خاصاً، سواء في إبداعهم الشعري والغنائي فيما يعرف بالمدايح النبوية، أو في إبداعهم التشكيلي الذي تفنن في تخيل «البراق» وتصويره. كما يرد ذكر القدس في حكايات ألف ليلة وليلة، وفي السير الشعبية، ويرد ذكر بيت المقدس/ القدس في أكثر من موضع، أهمها ما يشير إلى المدينة باعتبارها رمزاً للازدهار الثقافي والعلمي والتجاري، يقصدها الذين يرغبون في الاستزادة من علوم اللغة العربية، ويسعون إلى إتقانها، ويقصدها أيضاً من يرغبون في التفقه في الدين وعلومه، وتعرف معارف الأولين، وقوافل التجار والمسافرين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من أبناء الجزيرة العربية وغيرهم.

وفي سيرة الظاهر بيبرس سنرى أن رواية السيرة ومدونيتها لم ينظروا إلى المدينة باعتبارها مدينة غزاها العرب المسلمون أو فتحوها؛ ذلك أنهم دخلوها لنشر دينهم وأيضاً لإعادة حق مستلب، ولضمان حرية أصحاب الأديان السماوية في ممارسة شعائرهم الدينية التي أقرها الإسلام لأصحاب هذه الديانات على الرغم مما أشارت إليه السيرة من خلافات وصراعات بينهم.

وتغني المصريات للحجاج، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، عند توديعهن لهم قبل سفرهم لأداء الفرائض، وزيارة الأماكن المقدسة، فيما يعرف عند المسلمين بـ «حنون الحجاج» وعند المسيحيين بأغاني «التقديس» نسبة إلى القدس.

وما يلفت النظر بشدة في هذه الأغاني أنها متشابهة في طريقة أدائها ولحنها وكلماتها. ولا تزال القدس - كما كانت دائماً - رمزاً مقدساً وبؤرة صراع، ولعل ما يحدث الآن من إصرار على تهويدها مادياً بتغيير معالمها وطمس آثارها لا ينفصل عن السعي لتهويدها معنوياً أيضاً باستخدام مفردات من التراث وتأويلها لخدمة هذه الأهداف.

تبدو القدس في المآثورات الشعبية العربية عامة لا باعتبارها مجرد مدينة أو مكان فحسب، ذلك أنها تتجاوز هذا المعنى لتصبح تراثاً ورمزاً يجمع عليه كل أصحاب الديانات السماوية الثلاث، من ناحية أخرى.

وقد ارتبطت القدس (أورشليم) بمصر بعلاقة خاصة طوال عصور التاريخ، وتشير الوثائق إلى أنها كانت تشكل حدود أمن بالنسبة لمصر منذ عهد تحتمس الثالث (1490 - 1346 ق م) (الأسرة الثامنة عشرة)، وأن العلاقة قد أخذت أشكالاً مختلفة - بعد ذلك - بتأثير الأديان السماوية التي عرفتها هذه المنطقة التي يطلق عليها الآن الشرق الأوسط، فلم يخل كتاب مقدس من ذكرها إشارة أو صراحة. ويكاد تاريخ القدس (أورشليم) يحكي - في جانب كبير منه - تاريخ هذه المنطقة بما حفل به من صراع منذ أقدم العصور؛ ذلك أنها كانت وما زالت دائماً في قلب هذا الصراع قديماً وحديثاً.

والمصادر التاريخية تتفق - إلى حد كبير - على أن الاسم القديم «أورشليم» أو «أورسالم» يعني في أصله «مدينة السلام». (خالد عبد الرحمن العك: ص 38).

وقد أخذت المدينة أسماء عدة حتى استقرت في الوجدان العربي باسم «بيت المقدس» و«القدس»، وارتبطت بكثير من الأحداث التي رويت حولها الأساطير؛ فقد ورد عن الطوفان أن ركوب نوح (عليه السلام) في السفينة كان في مستهل شهر رجب، وقيل لعشر ليال مضت من رجب، وكان أيضاً لعشر ليال خلت من آب (أغسطس)، وخرج من السفينة يوم عاشوراء من المحرم، وكان استقرار السفينة على الجودي وهو جبل من أرض الموصل.

وقد ورد حديث أن السفينة طافت بالبيت الحرام أسبوعاً، ثم طافت ببيت المقدس أسبوعاً.. وروي أن السفينة سارت حتى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت بإذن الله تعالى وقالت: يا نوح هذا موضع بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من أولادك. (مجير الدين الحنبلي، ج 1، ص 112). ويعني الاسم عندما ينطقُ بفتح الميم وسكون القاف: المكان المطهر من الذنوب واشتقاقه من القدس وهي الطهارة والبركة، فمعنى بيت المقدس المكان الذي يُطهر فيه من الذنوب ويقال المنزه عن الشرك. والبيت

المقدس بضم الميم وفتح الدال المشددة أي المطهر، وتطهيره إخلاؤه من الأصنام.

كما ذكر الرحالة والجغرافيون الذين كتبوا عن فضائل البلدان «القدس»، فوصفوها بأنها مدينة حسنة البناء كثيرة العيون والماء. (المقدسي ص 17)، وأن بها ست برك، ثلاث منها في المدينة، وثلاث خارجها جعلت خزائن للماء لأهلها. (مجير الدين الحنبلي، ج 2، ص 59)، وفيها عمارات كثيرة حسنة، وشرب أهلها من ماء المطر، ليس فيها دار إلا وفيها صهريج، (القزويني، ص 149). ويدور حول آبارها وعيونها كثير من الحكايات التي تضيفي قداسة على بعضها، خاصة «عين سلوان» التي يروى أنها العين التي أبرأ فيها المسيح الرجل الضرير. (ابن الوردي، ص 51). وينسب إليها أن ماءها يفيد السُّلو إذا شربه الحزين، وأن الاستحمام بماء هذه العين يشفي من كثير من الأمراض (القزويني، ج 1، ص 152) و(ناصر خسرو، ص 68). كما يروى أن الخضر (عليه السلام) الذي يعتقد الناس أنه حيّ، يصلي كل جمعة في واحد من خمسة مساجد، أحدها مسجد بيت المقدس، وأنه في كل مرة يشرب من بئر أو عين، فمرة من زمزم بمكة، ومرة من بئر سليمان، ويغتسل من عين سلوان بالقدس. (مجير الدين الحنبلي، ج 2، ص 29). والحقيقة أن كتب التراث مليئة بكثير من الحكايات التي تحكي عن المدينة ونواحيها وعيونها وأهلها الذين وصفوا بقولهم: «ولا أعز من أهل بيت المقدس» كما تحكي عن كثير من الأحداث والشخصيات المعجزة التي ارتبطت بها.

وهناك كثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، يرد بها ذكر اسم المدينة، كما أن كتب المفسرين قد أشارت إليها أيضاً في أثناء تفسير بعض آيات الذكر الحكيم باعتبارها مدينة مقدسة مباركة، هي أقرب الأرض من السماء... إلخ. (وهو ما سنعود إليه فيما بعد في الدراسة لأهميته).

كما يرد ذكر القدس في حكايات ألف ليلة وليلة، وفي السير الشعبية، خاصة سيرة الظاهر بيبرس، وسيرة الأميرة ذات الهمة؛ ففي «حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، التي تبدأ مع الليلة الستين من «ليالي ألف ليلة وليلة» يرد ذكر بيت المقدس / القدس في أكثر من موضع، إذ لا يكتمل أداء فريضة الحج إلا بزيارة «بيت المقدس»، فبعد أن قضى «ضوء المكان» وأخته «نزهة الزمان» مناسك

الحج، كما تذكر الليالي (ص 235) «توجهنا إلى زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) فزاراه، وكان من المفترض أن يعودا بعد ذلك مع الحجاج إلى بلادهم إلا أن «ضوء المكان» قال لأخته «إنه يريد زيارة بيت المقدس، وقبر الخليل إبراهيم - عليه السلام -، فقالت له: وأنا كذلك..» «ولكن ضوء المكان يمرض مرضاً شديداً. وتحكي الليالي - في عبارة موجزة تلخص خصال أهل القدس أو المقدسة كما تسميهم، وما يتصفون به من مروءة»: «فاجتمع عليه أهل القدس، وبكوا عليه لما رأوه على تلك الحالة، وأشار إليهم يطلب شيئاً يأكله، فجاؤوا له من التجار الذين في السوق ببعض دراهم واشتروا له شيئاً وأطعموه إياه ثم حملوه ووضعوه على دكان وفرشوا له قطعة بُرْش، ووضعوا عند رأسه إبريقاً، فلما أقبل الليل انصرف عنه الناس وهم حاملون همّة...» «ثم تمضي الليالي لتحكي عن عناية «الوقاد» المقدسي به حتى تم شفاؤه. وتستغرق حكاية ضوء المكان ونزهة الزمان عدة ليالٍ من ليالي ألف ليلة وليلة. (69 : 79). ويرد ذكر «بيت المقدس» في مواضع أخرى من الليالي، منها ما ورد في سياق الحديث عن شواهي ذات الدواهي (ص 296) وأوصافها القبيحة البشعة، فهي العجوز، اللعينة، الفاجرة، العاهرة.. وغير ذلك من الصفات السلبية باعتبارها ممثلة الشر ورمزه، التي استطاعت أن تكيد للملوك المسلمين فتقتل بعضهم، وتدبر لقتل البعض الآخر، وتنصب الفخاخ للجيوش، وأنها لم تكن تستطيع أن تفعل أفاعيلها إلا لأنها استطاعت أن تكتسب أهم رمزين ثقافيين يميزان العرب والمسلمين، ونعني بهما اللغة والدين، ومن ثم «فقد سافرت إلى بيت الله الحرام لتطلع على الأديان وتعرف آيات القرآن ومكثت في بيت المقدس سنتين...» «لتتفقه أكثر في اللغة وعلوم الدين. ولعل في هذا ما يشير - إلى جانب إشارات أخرى - إلى أن المدينة كان ينظر إليها باعتبارها رمزاً للازدهار الثقافي والعلمي والتجاري، يقصدها أيضاً من يرغبون في التفقه في الدين وعلومه، وتعرف معارف الأولين، وتقصدها أيضاً قوافل التجار والمسافرون شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من أبناء الجزيرة العربية وغيرهم. (الليالي 70 - 79).

وفي سيرة الظاهر بيبرس سنرى أن رواية السيرة ومدونيتها لم ينظروا إلى المدينة باعتبارها مدينة غزاها العرب المسلمون أو فتحوها؛ ذلك أنهم إنما دخلوها لنشر دينهم وأيضاً لإعادة حق مستلب، ولضمان حرية أصحاب الأديان السماوية في ممارسة

شعائرهم الدينية التي أقرها الإسلام لأصحاب هذه الديانات على الرغم مما أشارت إليه السيرة من خلافات وصراعات بينهم.

وبالطبع فإننا لا نضيف جديداً هنا إذا أشرنا إلى قيمة «القدس» لدى المسلمين عامة، فهي أولى القبلتين، وهي المكان الذي عرج منه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى السماء، وهناك اعتقاد لدى الفلسطينيين أن «الصخرة المشرفة» صعدت تزغرد في إثر الرسول ولم تتوقف إلا عندما أشار إليها بالتوقف، وأن هذا هو سبب تعلقها.

ويقدر المصريون - مسلمين ومسيحيين - المدينة المقدسة تقديراً خاصاً وأفردت مآثوراتهم الشعبية لرحلة الإسراء والمعراج مكاناً فريداً، سواء في إبداعهم الشعري والغنائي فيما يعرف بالمدائح النبوية، أو في إبداعهم التشكيلي الذي تفنن في تخيل «البراق» وتصويره. وسنكتفي هنا بأشهر ما ورد في المدائح النبوية خاصة ما يرتبط بالإسراء والمعراج مما لا يزال يغني ويظرب له الناس عند تقديمه في ذكرى هذا الحدث المعجز، وهذه أبيات من «بردة البوصيري» (608 - 697هـ)، وفيها يوجه حديثه للرسول - صلى الله عليه وسلم:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم

كما سرى البدر في داج من الظلم

وبت ترقى إلى أن نلت منزلة

من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقدمتك جميع الأنبياء بها

والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم

في موكب كنت فيه صاحب العلم

ويسير أمير الشعراء «أحمد شوقي» على نهج البوصيري في قصيدته « نهج البردة» التي تغنت بها كوكب الشرق « أم كلثوم » فيوجه الحديث أيضاً إلى النبي -

صلي الله عليه وسلم - مشيراً إلى الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى، حيث تبدو بصمات الإمام (البوصيري) واضحة جلية في بناء القصيدة ذاتها، شكلاً ومضموناً:

أسرى بك الله ليلاً، إذ ملأته
والرسل في المسجد الأقصى على قدم
وحبذا ليلة الإسراء حين سرى
ليلاً إلى المسجد الأقصى بلا أتم
رأي به كرام الرسل طائفة
فأمهم ثم صلى خاشعاً بهم
بل حبذا نهضة المعراج حين سما
به إلى مشهد في العزلم يرم
سما إلى الفلك الأعلى فنال به
قدراً يجلب عن التشبيه في العظم
وسار في سبحات النور مرتقباً
إلى مدارج أعيت كل معتزم
وفاز بالجوهر المكنون من كلم
ليست - إذا قرنت بالوصف - كالكلم

وهذا جزء من نص شعبي طويل يؤديه المداحون الشعييون في مناسبة الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج.

عن المصطفى أخبرتم قال له كلام	وقد أرخوه أهل التقي السير
بأنه سرى للحق تحت جنح الظلام	وتحته براق تسبق لغمض البصر
من الركن للبيت للحما للمقام	إلى المسجد الأقصى وصح الخبر
وقف جبريل في القدس قال يا نبي	أمر ربك العالي ومولى الموالي
بأنك تصلي يا محمد إمام	

فصلى وصلوا الأنبياء كلهم
وبعد الصلا أحمد رقا للصعود
قال الحجر في القدس أنا مستجير
فقال النبي في الآخرة لا تخاف
غداً أشفع إليك أنت في أمتي
رأى وعين برؤياه تقرر العيون
لحضرته إله إن قال للشيء كن يكون
من النار وخايف وأنت قلبك حنون
ولا تخشى يوم الحساب من سؤال
وفي كل من يتبع طريق الحلال

وتغني المصريات للحجاج، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، عند توديعهن لهم قبل سفرهم لأداء الفرائض، وزيارة الأماكن المقدسة، فيما يعرف عند المسلمين بـ "حنون الحجاج" وعند المسيحيين بأغاني "التقديس" نسبة إلى القدس.

وما يلفت النظر بشدة في هذه الأغاني أنها متشابهة في طريقة أدائها ولحنها وكلماتها ما عدا بضع كلمات لا تتجاوز الثلاث، فبينما يذكر في أغاني الحنون اسم الشخص المقدس "محمد" أو صفته "النبي" - صلى الله عليه وسلم - و"الكعبة المشرفة"، تذكر أغاني التقديس السيد "المسيح" أو "السيدة العذراء" (عليهما السلام) أو "القدس الشريف"، أو "قبة القيامة".

تغني المصرية المسلمة للحاج:

• ومن البعد طلّت ...
نَضْرَتْهَا الجمال ...
• ومن البعد بانّت ...
نضرتها الجمال ...
قُبْتُك يا نبي ...
صامت وصلت ...
كَعْبَتُك يا نبي ...
صلت وهامت ...

وتتمنى له أن يزور القدس ليصلي فيها وأن يقرأ الفاتحة للسيدة العذراء، عليها السلام:

• ومُرَادِي تصلّي ...
وتقرأ الفاتحة ...
... في القدس الشريفة ...
... للعدرا العفيفة ...

(العدرا : السيدة العذراء)

كما لا تنسى أن الحدث الأكبر (الإسراء والمعراج) يرتبط بالقدس
ومسجدها:

• ولما يجينا الحبيب ... على البراق راكب ...
نجري نعدي ... ولا نحتاج لمراكب ...

وتغني المصرية المسيحية للمقدّس (وهو اللقب الذي يطلق على المسيحي الذي
حج إلى القدس):

• ومن البعد طلّت ... قُبْتُك يا مسيح ... من البعد طلّت ...
شَافَتْها الجمال ... صامت وصلت ...
• ومن البعد بانّت ... كَعْبَتك يا عدرا ... من البعد بانّت ...
نصرتها الجمال ... صلت وهامت ...
• وقدسك يليق لك ... وأن نُوبِتْ يا مقدس ... وقدسك يليق بك ...
وتراب المسيح ... على طَرْفِ رجلك ...

ولا تزال القدس - كما كانت دائماً - رمزاً مقدساً وبؤرة صراع. ولعل ما يحدث الآن من إصرار على تهويدها مادياً بتغيير معالمها وطمس آثارها تحقيقاً لأهداف معينة واضحة شديدة الوضوح لا ينفصل عن السعي لتهويدها معنوياً أيضاً باستخدام مفردات من التراث وتأويلها لخدمة هذه الأهداف فيما نراه من دراسات من مثل "أرض إسرائيل في القرآن"، وهي دراسة أراد بها صاحبها (ذئيب فلنائي) أن يثبت من خلالها باستخدام تفسير بعض المفسرين المسلمين لآيات من الذكر الحكيم أن فلسطين / الشام هي أرض إسرائيل، وبالطبع فإن القدس تحتل مكان القلب في هذه الأرض، وهو ما سوف نعرض له الآن منبهين على أهمية النظر فيما ورد في تراثنا من إسرائيليات، لعله قد آن الأوان لنقضها ونقدها.

أعتمد الكاتب على الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن بني إسرائيل، نصاً أو إشارة أو تلميحاً، خاصة تلك الآيات التي يعد فيها الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل بنصره، والتي تصورهم مستضعفين، مضطهدين، مطرودين... إلخ.

يقول الكاتب: إن أرض إسرائيل قد أشير إليها في القرآن الكريم بشكل واضح ثلاث مرات: مرة باسم "الأرض المقدسة" في الآية: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة: 20).

ومرة ثانية يشار إليها على أنها «الأرض المباركة» في الآية: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71)، وثالثة على أنها «الأرض» في الآية: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: 137).

ويرد في كتب التفسير ما يلي في تفسير الآيات السابقة:

سورة المائدة : 20

﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ يعني أرض بيت المقدس، وقيل الطور وما حوله، وقيل الشام، وقيل فلسطين، ودمشق وبعض الأردن، وقيل سماها الله لإبراهيم ميراثاً لوحده حين رفع على الجبل، فقيل له: انظر فلك ما أدرك بصرك. وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين « كتب الله لكم « قسمها لكم وسمّاها أو خطّ في اللوح المحفوظ أنها لكم.

سورة الأنبياء : 71

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

- عليهم السلام العراقي بعث إلى الشام وباركنا فيها لواصلته إلى العالمين شهراتهم وآثارهم العريقة، وهي البركات الحقيقية، وقيل بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغني والفقير. وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد

يملاً فيه الجراب بدرهم، وقيل ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بيت المقدس، وروي أنه نزل بفلسطين، ولوط بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة».

سورة الأعراف : 137

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾.

«الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ» هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه، والأرض أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية. «بَرَكَنَا فِيهَا» بالخصب وسعة الرزق.

وورد أيضاً في تفسير معنى «مُبَوَّأً صِدْقٍ» في الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾ (سورة يونس: 93) أن المقصود أن الله أنزلهم «منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام».

ويذهب الكاتب إلى أن أرض إسرائيل تسمى «الحشر» وهو اسم سورة في القرآن، وأن هذه الأرض تسمى أول الحشر؛ لأنه سيحشر فيها الناس في بادئ الأمر تمهيداً للخلود (البعث الأبدي) في الآخرة، وبحسب ذلك تسمى «أرض إسرائيل» بالعربي «أرض المحشر» وقد جاء في رواية ابن عباس ما يلي:

من يشك في أن مكان الحشر سيكون في «أرض إسرائيل» (الشام) فعليه أن يدعو الكفار من أهل الكتاب (اليهود) من منازلهم في بداية الطرد (الحشر). وقال لهم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - في ذلك اليوم «اخرجوا. قالوا: إلي أين؟ قال: إلى أرض المحشر»⁽¹⁾.

ويذكر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أشار على شخص سأله سؤالاً أن يذهب إلى القدس «بيت المقدس» وإلى أرض المحشر والمنشر، فإن الصلاة فيها تساوي ألف صلاة في مكان آخر⁽¹⁾.

كما يذكر أنه لا يوجد أي ذكر لاسم «أورشليم» في كل سور القرآن. وأن بعض المسلمين يرى أن كلمتي «مكان قريب» إشارة إلى أورشليم. وقد وردت هاتان الكلمتان في وصف البعث في الآخرة ﴿وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (ق: 41). فهذا هو أقرب مكان إلى الله من أي مكان آخر على وجه الأرض وفقاً لما ورد في أحد التفاسير «من مكان قريب» من صحرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً فقط، وهي وسط الأرض، وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعره «أيتها العظام البالية»، كما يورد تفسير الآيات ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: 50)... وهي الأرض المرتفعة، قيل هي إيليا أرض بيت المقدس وإنها كبد الأرض وأقرب إلى السماء ثمانية عشر ميلاً عن كعب، وقيل دمشق وغُوطتها وعن فلسطين والرملة. وعن أبي هريرة «الزموا هذه الرملة رملة فلسطين فإنها الربوة التي ذكرها الله». وقيل مصر.

سورة الإسراء : 1

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾. والمسجد الأقصى بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. «باركنا حوله» يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة.

سورة البقرة : 142 - 143

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ...﴾

«ما ولاهم» ما صرفهم «عن قبلتهم»، وهي بيت المقدس.

"التي كنت عليها" ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعول جعل، يريد وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حول إلى الكعبة.

سورة البقرة: 58

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

«القرية» بيت المقدس، وقيل أريحاء من قرى الشام، أمروا بدخولها بعد التيه. «الباب»: باب القرية، وقيل هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى، عليه الصلاة والسلام.

سورة البقرة : 259

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

والمار كان كافراً بالبعث، وهو بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك ولكلمة الاستبعاد التي هي أبي يحيى. وقيل هو عزيز أو الخضر أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم - عليه السلام -... والقرية بيت المقدس حين خربته بختنصر، وقيل هي التي خرج منها الألوفا.

سورة المائدة : 22

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾.

وقيل لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء، وقالوا ليتنا متنا بمصر، وقالوا تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر.

ولعل أهم ما يجب أن نسجله هنا أن الكاتب قد اجتزأ هذه الآيات من سياق العلاقة بين اليهود والله، سبحانه وتعالى، فلقد جابههم الله بفضله ونجاهم ممن كانوا يستعبدونهم باعتبارهم مؤمنين بالله الواحد الأحد، مطيعين له. فلما انقلبوا على أعقابهم، وقتلوا أنبياءهم وعصوهم، وكفروا بالله مراراً وكانت فرصتهم الأخيرة أن يؤمنوا بمحمد رسولا من عند الله أرسل للبشر كافة، ولكنهم - كعادتهم - آذوه وحاربوه ونكثوا موابيثهم معه، فكتب الله عليهم اللعنة والشتات وطردهم من رحمته.. يتجاهل الكاتب كل ذلك التاريخ ليأخذ من القرآن الكريم ما يوافق هواه. معتمداً أحياناً على التفاسير الضعيفة وما أدخله اليهود من إسرائيليات في التفسير، وفي أحاديث الرسول، عليه الصلاة والسلام. فعلى سبيل المثال، لا يوجد شاهد واحد على أن المقصود بتعبير «أدنى الأرض» أرض إسرائيل نصاً، إذ يذكر الزمخشري في تفسير الآيات من سورة الروم «الأرض أرض العرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي في أدنى أرضهم إلى عدوهم، قال مجاهد في أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «الأردن وفلسطين»، كما أن «أول الحشر» لا يعني أيضاً أرض إسرائيل، إذ يقول الزمخشري في تفسير الآيات «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب....». ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشام وكانوا من سبط لم يصيبهم جلاء قط، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، وقيل آخر حشرهم يوم القيامة، وقيل معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشرهم لقتالهم، لأنه قتال قاتلهم رسول الله»، وهكذا نرى أنه لم يرد ذكر لأرض إسرائيل فيما ذكره الزمخشري، ولكن يبدو أن اليهود قد اعتبروا الشام أرضهم، ومن ثم فكلما ورد ذكر الشام في أمر يتعلق بهم، وقفوا وقالوا ها هنا إشارة إلى أرضنا!

وبالطبع يطول الحديث إذا أردنا مناقشة ما سبق، ولعل أقصى ما نطمح إليه من ضرب الأمثلة التي أوردناه أن نكرر التنبيه على حاجتنا إلى النظر في تراثنا ونقده وتنقيته حتى لا تستخدم مفرداته ضدنا وحينئذ لن ينفع الندم على تقصيرنا.

الهوامش والمراجع

- (1) ابن الأثير: التاريخ الكبير، ج1، ص40. وكلمة «حشر» معناها في العربية ليس الحشر فحسب، بل كذلك الطرد، وقد أشار بهذا إلى طرد أسباط يهودية من الحجاز إلى مدن البلاد، إلى أريحا بوادي الأردن، وادرعبي عبر نهر الأردن.
- (2) خالد عبد الرحمن العك: تاريخ القدس العربي القديم، مؤسسة النوري، دمشق، 1986م.
- (3) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2.
- (4) ابن كثير (الحافظ أبو الفداء اسماعيل): البداية والنهاية، ط6، دار المعلافة، بيروت: 2001م.
- (5) القزويني (زكريا بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد، سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م، ج1.
- (6) ناصر خسرو علوي: سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) سلسلة الألف كتاب الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، عدد 122.
- (7) الزمخشري: الكشاف.
- (8) أحمد علي مرسي: الفولكلور والإسرائيليات - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - 2001.

* * *